قصائدُ تبحثُ عن لغةٍ تكتبُها

. طراد الكبيسي ❖ .

١ في العام ١٩٤٥ كنت أسمعُ أصواتَ الجُنْد من السيخ والكُرْكرة الذين دخلوا بلدي مع جيش الاحتلال البريطاني.. / أسمعُ أصواتَهم تَرْطُنُ عندما آكلُ جوزةَ الهند وهي تُطَقْطِقُ في فمي. / أَسْأَلُ أَحَدَهم ـ وهو يلقي بحفنَات الفُسْتق السودانيّ للأطفال الذين يَجْرونَ وراءَ عرباتهم ـ ماذا كَسَبْتَ؟ / يُجيبُ بِحُزْنٍ: مُرْغَمٌ أخاكَ لا بَطَلْ!

٢ ظَلَّتْ تمشي في الغاباتْ. / وعند الشاطئ الرمليِّ للفراتْ. / حتى صار جسدُها شجرةً تنامُ في الليل وتستيقظُ في النهارْ. / شجرةً تُورقُ في الخريفْ. / وتتعرَّى في المَصيفْ. / تقفُ شاخصةً في الشمسْ. / وتستلقي عند ظلٍّ خفيفْ. / عندما ينظرها الناسُ لا يراها أَحَدْ. / لكنَّها في الغابات مُميَّزةٌ بثوبٍ شفيفْ.

٣ كُنتُ صاعداً، وهو نازلْ. / تحادَثْنا بَعْضَ ثوانٍ. / قال: إنّه نازلٌ إلى قاعة المومياءات يُحاورُ أسلافَه الموتى. / أنا صاعدٌ إلى أعلى قمَّة الهرم ـ مُطمئناً أَنْ لا يراني أَحَدْ ـ ألقي بجثَّتي إلى الخلاءْ. / لقد أَتعبَني حمْلُها عشراتِ السنين: مَيْتةً. تضحكُ في المآتمِ وتلطمُ في الأعراس!

٤ حَمَلَ القومُ الجُثَّةَ. / زرعوها في مقبرة. / نَبَتَتْ بَعْدَ فترةٍ شجرةً. / تفتَّحَت الشجرةُ عن وَرْدٍ لا يعرفُ أَحَدٌ جِنْسَه. / تفتَّق الوردُ عن طيرٍ لم يَرَ أَحَدٌ مِثْلَه. / قالوا: هذه هي الشجرةُ الملعونة: تَلِدُ نوارسَ وأَغربةً وطيورَ الهجرة. / لكنها تظلُّ هي مكانها كصخرة: مَنْ وَضَعَ رأسَه عليها نامْ. / ومَنْ نام واستيقظَ رأى نفسَه الذي رآهُ في المنام!

٥ سألتني القصيدةُ. قالتْ: أَنزلُ النهرَ مرَّةً أَم مرَّتين؟ قلتُ: لنْ تنزلي النهرَ مرَّتين. / نزلتْ. / نزلتْ إلى الأعماق. / صَعَدتْ إلى الأعلى. / لعِبَتْ كما يلعبُ السَّمكُ حين يطمئنّ أنه بعيدٌ عن شباكِ عدوّه الصيَّاد. / جدَّفَتْ بجناحين. ثُمَّ خرجَتْ تقطرُ ماءً. / قالَتْ: الآنَ أُحسُّ أنّي غَسلْتُ جسدي ممّا عَلقَ به من ذنوبكَ. / الذنوبُ كالتين والزيتون شهيَّةٌ. / لكنكَ سرعانَ ما تنساها عندما تنزلُ نَهْراً يتلامعُ ماؤهُ مثل نجومِ دَرْبِ التبَّانة.

٦ رأَيْتُه يُقبِّلُ الحَجَر، مردِّداً بعضَ العبارات من أسفارٍ مختلفة، ومُخاطباً الحَجَر قائلاً: أفديكَ بأبي وأُمّي. أنتَ حبيبتي وحُبّي. / ابتعَد عنهُ الحَجَرُ. قال: إنْ بحثْتَ عني تجدْني في المقبرة. تضعُ رأسكَ عليَّ أَوْ تَحْتي. وتكتب اسْمَك.

٧ أَوقدْتُ في قلبي ناراً. / قلتُ: تقدَّموا. تلكَ هي نارُ المجوسْ. / تَدُرُّ عليكم حُزْنَها ضياءً يُغْوي النفوسْ. / فهلمُّوا أَيّها الضائعون في مقاهي الليل. إنّ الظلامَ ظِلٌّ لشَمْسِ الشُّموسْ!

٨ وَضَعَ أصابعَهُ العشرةَ على حَجَرْ. / أَخَذَ الحَجرُ بَصَماته العشرَ. قال: الآنَ عَرفْتُكَ. أنتَ مَنْ جاء اسمُه منقوشاً بالحَرْف المسماريّ على صخرة. / الصخرةُ في وادْ. / لم يُخْلَقْ مثْلَهُ في البلادْ. / وادٍ اسمُه دجلة. وادٍ اسمُه الفرات. يتحلَّى بأقراط أحلى من اللازورد واللؤلؤ والسجّادْ. / يتحلَّى بالنَخْل والرُّز العَنْبر والبرتقال وأَشجار الرمّانْ. / لكنَّ الأميركانْ أَحرقوا الزرعَ والضرعَ والإنسانْ. / وسرقوا ما قد يكونُ.. وكانْ!

❖ ـ شاعر وناقد من العراق.

٩

قال: تطوَّفْتُ في المدينة. / طرقْتُ هذا البابَ. وهذا البابْ:

بابٌ: جاوبني الصمتُ: لا أَحَدْ.

باب: وَضَعَ في رأسي البندقيةَ الكلاشنكوف صارخًا: أُغْرُبْ عن وجهي وإلاّ أَطلقْتُ النارْ.

بابٌ: دَقَّ في رِجْلي مسمارْ.

باب: سوَّرني بالنارْ. قَيِّدني إلى الجدار الفاصل، قال: احْذَرْهُ يكاد ينقضُّ أو يَنْهارْ.

بابٌ: مَدَّ لي لسانَهُ ساخرًا. قال: اذهبْ يا ولدي ابحثْ عن دارٍ غير الدارْ.

بابٌ: أَمسَكَ يدي. قال: لا تَدُقَّني. لقد صار رأسي صخرةً لكثرة ما دَقُّوني:

افْتَحْ. البرابرةُ في الانتظارْ!

١٠

في الصحراء أكونُ أَسْطَعَ رؤْيةً. / يمتدُّ بصري إلى ما لا نهاية. / في الليل أُحصي النجومَ: نجمةً. نجمةً: الأُنثى منها والذَّكَرْ. في النهارِ أدخلُ الغابات. / والكهوفَ والوديانْ. / وأُصاحبُ الرعاة من موسى إلى زيدانَ الذي تتبعه أغنامُه طَرِبَةً على صوت المِطْبَقِ والمزمار. /

وأستكشفُ النبُوعَ والآبارَ وشواهدَ القبور ـ حيث وُجدَتْ ـ / أُخاطبُ الموتى: استيقظوا، أما شَبِعْتُم نومًا؟ / يردُّ أَحدُهم غاضبًا: إلى أَيَّة حياة تدعونا!؟ إنَّنا هنا نحيا حياتَنا التي نُريد. لا حياتَكُم التي يصوغُها لكم العُتاةُ الطُغاةُ.. حتى إذا متُّمْ صَحَوْتُمْ ـ ولا خيارَ لكُمْ: كيف تموتون؟

١١

شاعرٌ يكتبُ لتحبَّهُ امرأة. / شاعرٌ يكتبُ ليُبْعِدَ الضوضاءَ ويجمع الصمتَ في سلَّة. / شاعر يكتبُ ليمزجَ الألوانَ في قصيدة. / شاعرٌ يكتبُ ليروي سيرتَهُ أو سيرةَ سُحليَّةٍ تُحَمْلِقُ في المارَّة. / شاعرٌ يكتب لأنه يطمع أَنْ يظلَّ حيًّا عبر الأزمنة. / شاعر يكتبُ ليضعَ الأشياءَ في جيبه. / شاعر يكتبُ لا يعرف لماذا يكتب، لكنه يرى أنَّ حياته في أَنْ يكتب. / شاعر يكتب ليُمسكَ الزمنَ، لكنَّ الزمنَ يتسلَّلُ من النافذة. / شاعر يكتب: الشعرَ مرآةٌ يرى فيها شبيهَه. / شاعرٌ يكتُب رغبةً في أَنْ يكون راعيًا والقصائد قطْعانه. / شاعر يكتب: لا يعرف عمَّاذا يكتب. يسألُ الهُدْهُدْ. يأتيه الهُدْهُدُ بعرْشِ بلقيس وأشعار سليمانْ. يأتيه بناقة صالحٍ والحَجَرِ الذي ضربَهُ بعصاهُ موسى فتفجَّرَتْ إِثْنَتا عَشَرَ عَيْنًا. وكان ما كان.. كان. / ذهب الشاعر يَمْتَحُ من بِئْر، ويَغْرُفُ من نَهْرْ. وينحتُ في صَخْرْ. ثُمَّ يسألُ: أَهذا شعر؟

شاعرٌ يكتبُ لا يدري ما يكتبُ. يَدَعُ القصيدةَ تكتبُ نَفْسَها. ثُمَّ يتَّهمها بأنَّها سَرَقَتْ أفكاره!

شاعرٌ يكتب لأنه يحب أَنْ يشتري. يقرأ الروضَ العاطر من السويقة في الرباط. ورجوع الشيخ إلى صباه من الرصيف المُقابل لجامع القرويّين في فاس. مُحَدِّقًا في الآن نفسه بـ:

« امرأة في الشُرفة المُجاورة
تسقي أزهارَها بعَرَقِ إِبطيْها ».

١٢

قال: إذا صَحَّ أَنكَ شاعر تكتبُ. لماذا تكتبُ؟

أقول: إذا كنتُ أَحببْتُ امرأةً، فلم تحبَّني امرأة. / أما الزمنُ فسُحليَّةٌ لو أَمسكتُها لأَلقيْتُ بها في البحر الميّت. / وهكذا الحياة: جُثَّةٌ دَفَنْتُها من زمنٍ في « مقبرة لاواعية. » / أمّا الخلودُ فأكذوبةٌ يُعزّي بها البعضُ نفسه وهو في طريقه لأَنْ يعود محضَ تراب:

فهذي قبورُنا تملأُ المنافي: الجواهري. البيّاتي. نازك الملائكة. فؤاد التكرلي. بلند الحيدري. يوسف الصائغ. جلال خيّاط. صفاء خلوصي. سركون بولص... إلخ. فعَنْ أَيِّ خلودٍ تتكلَّم؟! هُمُ السَّابقون ونحن اللاحقون؟

عمّان

إضاءات:

- المقبرة اللاواعية: أوّلُ قصيدة تُنشر لي في الصحافة الأدبية العربية. نُشرتْ في مجلة **الأديب** لصاحبها الراحل المرحوم ألبير أديب، عدد أكتوبر، ١٩٥٦.
- التضمين الأخير في الفقرة ١١ من قصيدة بعنوان: «غليون وايتمان» للشاعر المغربي محمد نجيم، مجلة **نزوى**، عدد ٤٨، ٢٠٠٦، ص ٢٠٩.
- وفي الفقرة ١١ نفسها، ثمّة تضميناتٌ من قصائد للشاعر تشارلز سيميل، وتضميناتٌ من قصائد للشاعر جيمس ساكري، مجلة **نزوى**، العدد نفسه.
- أما كتابا **الرَّوْض العاطر** و**رجوع الشيخ إلى صباه** فأنا مَنِ اشتراهما. لكنني لم أرَ المرأة التي أشار إليها الشاعر محمد نجيم في نصّه.